نوور عيني

المحاضرة الخامسة

التحليل الاجتماعي لدراسة المدينة

عناصر المحاضرة

- مدخل
- أولاً :تعريف المدينة
- ثانياً :نشأة المدينة وتطورها

أهداف المحاضرة

- التعرف على مفهوم المدينة ومضمونه
- استعراض نشأة المدينة وتطورها

مدخل

•لقد اهتم العلماء والباحثون بدراسة المدينة نظراً لأن الحياة الحديثة تتركز تدريجيا في المدن ، حتى أنه في بعض البلدان لا تكاد نسبة السكان الريفيين تظهر بجانب نسبة السكان الحضريين ، ولذا فإن الاهتمام العلمي بدراسة المدينة قديم نسبياً، أي أن علم الاجتماع الحضري لم يتطور بشكل ملموس إلا خلال العقود القليلة الماضية.

•حيث شهد القرن العشرين اهتماماً ملحوظاً بالظواهر الحضرية المختلفة وأصبحت المدينة تشكل موضوعاً أساسياً للعلوم الاجتماعية المختلفة بشكل متكامل ، حيث يصعب على علم بعينه فهم الواقع الحضري بمختلف جوانبه، وبالتالي فإذا كانت المدينة بحاجة إلى جهود علماء الاجتماع فإنها بحاجة ماسة إلى جهود علماء السياسة والاقتصاد والجغرافيا والأنثروبولوجيا والسكان والتاريخ.

•فإن تنوع مداخل دراسة المدينة لا يعنى إطلاقاً العزلة العلمية بقدر ما يعني تعدد الرؤى والثراء الفكري ، خاصة إذا ما كان الأمر متعلقا بظاهرة معقدة ومتعددة الجوانب ومتشابكة الأبعاد بالمدينة وخاصة في ظل تنامي أحجام المدن وتعدد مشاكلها التي أصبحت تفرض نفسها على عالمنا المعاصر.

•وهذا يفرض ضرورة فهم المدينة في إطار السياق الأكمل ، فالمدينة ليست مجرد نسق اجتماعي محلي تابع لنسق اجتماعي قومي ولكنها وحدة أساسية من الوحدات المكونة للبناء العالمي الشامل أيضا ، ومعنى هذا أن المدينة لا تتأثر فقط بالتحولات الاجتماعية والاقتصادية القومية المحلية بل تتأثر أيضاً بالتحولات العالمية الخارجية.

•وفي إطار هذا الفهم نحاول في هذه المحاضرة تقديم تحليل اجتماعي لدراسة المدينة سواء من حيث المضمون والمحتوى وفي ضوء ماضيها وحاضرها ومستقبلها من أجل تقديم إطلالة سريعة لموضوع يتعلق بلب علم الاجتماع الحضري وبظاهرة عالمية تعاظمت معدلاتها خلال القرن العشرين ثم واصلت على استقلالها السياسي.

•وبدأت تشهد ما يمكن أن نطلق عليه الانفجار الحضري وظهور الكيانات الحضرية الضخمة في كثير من دول العالم النامي والمتقدم على حد سواء.

أولاً :تعريف المدينة

•رغم أننا نعيش في المدينة ونحيا فيها وأن كثير من العلماء يدركون ماذا نعني بكلمة المدينة ولكن أحداً لم يقدم تعريفاً شاملاً للمدينة ، وعادة ما يستخدم علماء الاجتماع هذا المصطلح في إطارها عن البيئة القائمة التي يسكن في نطاقها سكان الحضر، وبالتالي فإن تعبيرات المجتمع الحضري والحضرية والتحضر ما هي إلا عبارات تستخدم للدلالة على الحياة الاجتماعية في المدينة.

•ولعل أهم ما يميز المدينة عن المجتمع الريفي سواء من حيث البناء والثقافات هو أن المجتمع الريفي متجانس بينما المجتمع الحضري غير متجانس وأن البناء والوظيفة بين المجتمعين مختلفين، فالمدينة أكبر حجماً من المجتمع الريفي ومتكاملة وظيفياً لعناصرها المختلفة على هيئة وحدة كلية.

•وفي هذا الصدد يرى لويس ويرث أن أهم ما يميز المدينة ليس فقط بنسبة السكان الذين يعيشون في المدن وإنما في التأثير الذي تمارسه المدينة على الحياة الاجتماعية للإنسان أكبر من معدل نمو السكان الحضريين لأن المدينة في تصوره ليست مجرد المكان الذي يعمل فيه الإنسان الحديث ويأوي إليه بل لأنها المكان أو المركز الذي يضبط ويمسك بزمام المبادئ الاقتصادية والسياسية والثقافية.

•ولذا فإن التعريف السوسيولوجي للمدينة لابد أن يسعى لانتقاء عناصر الحضرية التي تميزها كأسلوب متميز للحياة الجمعية للإنسان، ولهذا فإن وصف المجتمع المحلي بناء على الحجم ليس صائباً، وينطبق ذلك أيضا على بعض المقاييس الأخرى مثل عدد السكان والإمكانات الفيزيقية المتاحة ، والنظم وأشكال التنظيم السياسي.

•فإن أهمية هذه المقاييس ليس في وجودها في المدينة ولكن في قدرتها على توحيد وتعديل وصياغة طابع معين للحياة الاجتماعية في شكل حضري، وبهذا يمكن تعريف المدينة كما يرى ويرث بأنها مكان دائم للإقامة يتميز نسبياً بالكبر، والكثافة يسكنه أفراد غير متجانسين بينما المدينة عند روبرت بارك ليست مجرد تجمعات من الناس مع ما يجعل حياتهم فيها أمراً ممكناً مثل الشوارع والمباني والكهرباء ووسائل المواصلات.

•كما أنها ليست مجرد مجموعة من النظم والإدارات مثل المحاكم والمستشفيات والمدارس والشرطة والخدمات المدنية من أي نوع، فالمدينة فوق هذا كله اتجاه عقلي ومجموعة من العادات والتقاليد إلى جانب تلك الاتجاهات المنظمة والعواطف المتأصلة في هذه العادات والتي تنتقل عن طريق هذه التقاليد ، وبمعنى آخر فالمدينة ليست مجرد ميكانزم فيزيائي أو بناء صيغة للإنسان.

•وإنما هي نتاج الطبيعة وذات طبيعة إنسانية على وجه الخصوص أيضا ، بينما ذهب جورج زيمل إلى البحث في الأسس السيكولوجية التي تكمن وراء الطابع المتروبوليتي للحياة، فيدرس التوترات والعواطف ونوع الذكاء الذي يجب أن يتمتع به الأفراد الذين ينجحون في الحياة في مثل هذا النوع من المدن الكبرى.

•كما درس في الوقت ذاته التنظيم الاجتماعي المتناهي في التعقيد الذي يؤدى إلى قيام الروابط والجماعات المتعددة التي تعتمد على تقسيم دقيق للعمل، ولكن كان يعتقد أن أهم خاصية للمدينة(الميتروبوليس)هي امتدادها الوظيفي أبعد من حدودها الطبيعية.

•في ذهب ماكس فيبر في تعريفه للمدينة على أنها منطقة مستقرة وكثيفة من السكان المتزاحمين ينعدم التعارف الشخصي والمتبادل بينهم لأن المدينة تتكون من مجموعة أو أكثر من المساكن المقترحة حيث نبني المنازل في المدن متقاربة مع بعضها البعض فيكون الحائط لصيق الحائط كما هو الحال في المدن الحديثة، ومن ثم فإن فيبر يعرف المدينة الحديثة على أنها نسق أو محل إقامة مغلق نسبياً لتجاور المنازل بشكل كبير ومن شروطها الضرورية توفر سوق ووضوح وظيفتها الاقتصادية.

•وبهذا يمكن تعريف المدينة بشكل أكثر تحديداً باعتبارها وحدة اجتماعية حضرية محدودة المساحة والنطاق ومقسمة إدارياً ويقوم النشاط فيها على الصناعة والتجارة وتقل فيها نسبة المشتغلين بالزراعة ، وتتنوع فيها الخدمات والوظائف والمؤسسات وتمتاز كثافتها وسهولة مواصلاتها وتخطيط مرافقها ومبانيها وهندسة أراضيها وتتمايز فيها الأوضاع والمراكز الاجتماعية والطبقية.

ثانياً :نشأة المدينة وتطورها

•لاشك أن نشأة المدينة يمثل ثمرة لتطور تاريخي بعيد المدى ، حيث أن لكل مدينة تاريخها ، ولذلك فإن تاريخ الإنسان يمكن أن يكون في جانب كبير منه على أنه تاريخ المدن والحياة في المدينة ، وذلك أن المدينة قد أدخلت عنصراً جديداً في العمليات التاريخية لأن الإنسان قد خلق طريقة جديدة للحياة لا تعتمد على العمل في الزراعة.

•كما أن أصل ونمو وانتشار المدن قد أمكن تتبعه تاريخياً خلال فترات متميزة من الزمان، والسؤال الذي يطرح نفسه في هذا السياق هل هناك نمو تطوري أو دوري في التاريخ الإنساني مرتبط بظهور المدن أو نموها؟

•وفي الواقع أنه من الصعب تتبع نمو المدن بدرجة ملحوظة من اليقين وذلك لأن كثيراً من الحقائق المتصلة بالمدن القديمة لها الطابع الأركيولوجي(علم الآثار يقوم بدراسة الرواسب الثقافية المادية)إلى جانب أنها متناثرة وتصور مسائل جزئية في الغالب، علاوة على أن كل المدن تقريباً في كل المراحل التاريخية وكل بلدان العالم لم تدرس بدرجة كافية من الدقة.

•كما أن بعض المدن غير معروف مثل مدن الشرق الأوسط وإن كان هناك بعض العلماء مثل جينيفز سكيرس في مؤلفها الثقافة الحضرية في مدن الشرق أوضحت الامتداد التاريخي لمدن الشرق العتيقة والتي تعود جذورها إلى ما قبل الإسلام ، وكيف نمت مع انتشار الإسلام في الأقاليم ، وازدهرت مع تشعب خطوط التجارة ثم أوضحت وضع الحياة في الشرق ضمن الإطار العام للمدينة من حيث موقعها.

•وتوافر الماء وضواحيها السكنية وأسواقها ومنتجاتها والإصلاحات الحديثة التي غيرت من شكلها وبعض وظائفها وتشير إلى دور الإسلام في تعريف الخاص والعام، وفي تخطيط هذه المدن والمنشآت والمرافق العامة في هذه المدن والمساجد والأسواق ، وارتباط هذه المرافق بتخطيط المدينة العام ونظام الحياة فيها.

•لذا يبدو أن هناك اتفاقاً عاماً بين المؤرخين وعلماء الاجتماع على أن المدن الحضرية الأولى قد ظهرت منذ سبعة آلاف عام في دلتا وادي النيل بمصر ومنطقة ما بين النهرين في العراق ، ثم نشأت بعد ذلك مراكز أخرى في وادي السند في باكستان وحوض النهر الأصغر في شمال الصين، أما في العالم الجديد فقد نمت المراكز الحضرية على ساحل بيرو وفي المكسيك قبل بداية العصر المسيحي.

•ولقد أوضحت الدراسات التاريخية أن هذه المناطق كانت تضم مساحات ضخمة من الأراضي المنزرعة التي تكفي في ظل الظروف الطبيعية لمعيشة أعداد كبيرة من السكان، علاوة على ذلك عرفت هذه المناطق نظام الري المنتظم مما أسهم في تدعيم الارتباط بالزراعة كمصدر أساسي للنشاط الاقتصادي، ومن المنظور الاجتماعي ارتبطت هذه العناصر بظهور حياة جماعية واضحة المعالم.

•فعلى سبيل المثال أوضح بعض الباحثين أن هذه المناطق قد شهدت ضرورياً من التدرج الاجتماعي تعكسه الاختلافات العديدة بين المباني وما يرتبط بذلك من سلع مادية، والمحقق أن ظهور المدن قد ارتبط بازدهار الثقافة المادية والفنية فضلاً عن تطور صناعة المعادن ووسائل النقل والكتابة.

•كما يرى البعض أن المجتمعات المحلية الزراعية المتمثلة في القرى هي الشرط الأساسي الضروري لظهور الحياة الحضرية بمعنى أن الثورة الحضرية المبكرة قد نشأت في إطار عملية التحول نحو إنتاج الطعام ولكنها ارتبطت في الوقت ذاته بعدد من التغيرات التكنولوجية الهامة، ولذا يميل البعض إلى إبراز الأدوار التي لعبتها التطورات التكنولوجية في ظهور المراكز الحضرية في مختلف مناطق العالم.

•وكما تميل بعض الدراسات التاريخية إلى إبراز دور العوامل السكانية الناتجة عن التطورات التي طرأت على الزراعة وعلى الأخص فيما يتعلق بكميات الإنتاج الزراعي، كذلك كانت هناك علاقة بين ظهور المراكز الحضرية وتحقيق الفائض الاقتصادي غير أن أكثر المحاولات النظرية للتعرف على نشأة المدن قدمها جوردن تشايلد حيث حدد بعض ملامح ما أطلق عليه الثورة الحضرية المبكرة.

•ومن هذه الملامح الاستيطان الدائم في صورة تجمعات كثيفة وبدايات العمل بالنشاطات غير الزراعية، وفرض الضرائب وتراكم رؤوس الأموال وإقامة المباني العامة الضخمة وظهور طبقة حاكمة مسيطرة ، وتطور فنون الكتابة، وتعلم مبادئ الحساب والهندسة ، واكتساب القدرة على التعبير الفني ونمو التجارة.

•وعلى الرغم من الانتقادات العديدة التي وجهت إلى هذه المحاولة النظرية إلا أنها تعد خطوة أولى نحو دراسة الظروف المهيئة لنشأة المدن، بل أن دراسات حديثة عديدة قد أوضحت أن الملامح التي حددها تشايلد قد توافرت تماما عند دراسة المراكز الحضرية المبكرة التي نشأت في منطقة ما بين النهرين(دجلة والفرات.)

•ومن المحاولات الأخرى للتعرف على ملامح المدن في العصور الوسطى تلك المحاولة التي قدمها جدعون جوبرج في مؤلفه (مدينة ما قبل الصناعة)بعض الملامح الهامة التي يمكن من خلالها فهم واضح لهذا النمط من المدن وتصور ما يحدثه التصنيع فيما بعد ذلك وما يمكن أن يقال أن مدن ما قبل الصناعة تشكل مراكز أساسية للإدارة الحكومية وممارسة النشاطات الدينية ، والأعمال التجارية الذين يحددوا طابعها.

•أما التخصص المهني فهو محدود ويكاد يقتصر على إنتاج السلع الضرورية باستخدام الطاقة البشرية والحيوانية ومعنى ذلك أن تقسيم العمل يكاد يكون أولياً حيث تتألف جماعات قليلة من الصناع والحرفيين ، وفي هذه المدن يخضع العمل الإنتاجي للأساليب التقليدية ، كما أن الطوائف الحرفية تحول دون ظهور التجديد لأن ذلك قد يتعارض مع مصالحها وتسيطر على هذه المدن اعتبارات الاكتساب لا الانجاز.

•بمعنى أن يرتبط الفرد بالمهنة التي يرثها عن آبائه ويظل هذا الفرد مقيماً في منطقة معينة من المدينة لا يغادرها إلا في القليل النادر، أما الضبط الاجتماعي فيتحقق من خلال الجماعات الأولية لا الثانوية ، إذ أن الأفراد يعرفون بعضهم البعض ويرتبطون فيما بينهم بروابط القرابة والمصاهرة القوية، وتمارس الأسرة الممتدة التقليدية تأثيراً هائلاً على الأفراد بحيث لا يستطيعون الفكاك من معاييرها والتزاماتها.

•وهناك بعد ذلك قيم عامة مشتركة تنظم سلوك الأفراد تنظيماً محدداً بحيث لا تسمح بحدوث انتهاكات إلا في أضيق الحدود، ولا توجد طبقة وسطى واضحة لأن الناس إما فقراء أو أغنياء كذلك تسيطر على هذه المدن اعتبارات الخصوصية لا العمومية، وباختصار فإن مدن ما قبل الصناعة تتميز بالغزو أكثر مما تتميز بالانجاز وتؤكد الخصوصية أكثر مما تؤكد العمومية.

•وعلى هذا يمكننا أن نميز في تاريخ المدن بين ثلاث نماذج وهي-:

1-المدن في العصر القديم : حيث نشأت في الأودية الخصيبة أعظم الحضارات الإنسانية مثل الحضارة المصرية في وادي النيل ، والحضارة السومرية بين الرافدين وحضارة هومنجودار في الهند وهي حضارة معاصرة لحضارة الأسرة الرابعة الفرعونية.

•وكانت المدن الحضرية من أسبق مدن العالم القديم ظهوراً واستقراراً وكانت دلتا النيل أسبق من الوجه القبلي انتظاما لطائفة كبيرة من المدن وذلك بعد أن توحدت البلاد على أيدي الملك مينا ، كما لا يمكننا أن نقلل من شأن المدن القديمة التي نشأت في أحضان الحضارة البابلية والآشورية والفارسية والمدن الفينيقية التي ازدهرت على ساحل البحر الأبيض المتوسط مثل صيدا وصور وغيرهما.

•وقامت في بلاد اليونان المدن بالمعنى الصحيح ، بل أن أهم ظاهرة سياسية في حضارة اليونان هي نشأة المدن المستقلة التي يطلق عليها دولة المدينة ، وفي عصر الرومان قامت دول كثيرة لأسباب سياسية وإستراتيجية واقتصادية مثل الإسكندرية وروما ودمشق وغيرها.

2-المدن في العصور الوسطى :حيث تشهد تلك العصور ظهور الحضارة الإسلامية والتي نشأت طائفة من المدن أهمها مكة والمدينة والفسطاط وبغداد والقيروان، وفي أوروبا شهدت بعض المدن تقدماً ملحوظاً من القرن الثاني عشر فقد تقدمت الصناعة والتجارة خصوصاً وكانت معظم المدن التي ازدهرت في العصور الوسطى هي المدن الساحلية وترجع أهم العوامل التي ساعدت على تطور نظام المدينة في نهاية القرون الوسطى-:

أ -انتشار نظام المصانع اليدوية الكبيرة حيث اشتدت حركة المنافسة وكثرت المنتجات واتسعت الأسواق وزاد الطلب على الأيدي العاملة.
ب -قيام طبقات بورجوازية وسطى أثرت في التجارة سواء في الشرق أو في الغرب.
ج -انهيار النظام الاقتصادي وتحرر الفلاحين من رق الأرض مما أدى إلى ازدياد موجات الغزو العمراني من الريف إلى المدن.

د -تطور المعرفة الإنسانية وارتقاء الأنماط الثقافية وتقدم حركة الكشف الجغرافي العلمي ثم ظهور الجامعات.

3-المدينة الحديثة :وقد شهدت تلك المرحلة تقدماً مذهلاً في مجال الاكتشافات الصناعية التكنولوجية كما كان لها عظيم الأثر فيها، وينبغي ألا يفهم أن جميع المدن الحديثة هي مدن صناعية بالضرورة بمعنى أنها تشتمل على عدد كبير من المصانع أو أن هذه المصانع تشكل أساس بنائها الاقتصادي.

•ولكننا نقصد أن ذلك النمط الحضري الذي ازدهر واتسع نطاقه في عصر التصنيع وبالتالي فقد شهدت مرحلة النمو الصناعي توسعاً كبيراً في نطاق المدن القائمة من ناحية وظهور مدن جديدة من ناحية أخرى، وقد صاحب ذلك تزايد في معدلات الهجرة الريفية للحضرية التي كانت أكثر وضوحا في مدن العالم النامي.

•وقد ترتب على نمو المدينة مشكلات وظهرت قضايا عديدة سواء تلك المشكلات كالطرق ووسائل النقل والمواصلات والإسكان أو الاجتماعية كالجريمة والتفكك الأسرى وغيرها، ومع استمرار هذا النمو ظهرت الميترو بوليس والتي ذهب بعض علماء الاجتماع إلى أنه إذا كانت المدينة الحديثة ظاهرة القرن التاسع عشر فإن الميترو بوليس(ومعناها المدينة المهيمنة على المناطق المجاورة)تعتبر ظاهرة القرن العشرين.

•ولم يتوقف النمو الحضري عند مرحلة الميتروبوليس ولكن تخطاها إلى مرحلة جديدة سميت بالميجا بوليس(أي المدينة العظمى)والتي نشأت نتيجة اختلاف عدة مدن معاً واتحادها سوياً، وقد ذهب " لويس ممفرد "في مجال حديثه عن مراحل تطور المدينة إلى أن مرحلة الميجا بوليس تمثل مرحلة بدء انحلال وانهيار المدينة بل وسقوطها.

•وذلك لأن مؤشرات الضعف تأخذ في الظهور في هذه المرحلة ثم تتزايد الفردية المطلقة والتحكم الرأسمالي، وينقسم المجتمع إلى فئات متنافسة ثم متصارعة ، ويحل الإنتاج الآلي محل الإنتاج الفني الأصيل ويتفاقم الصراع بين العمال وطبقة الرأسماليين وينتشر الاضطراب والتخريب والتمرد وفي المقابل تقوم الحكومات بأعمال القمع والتعذيب والتشرد ، وغير ذلك من ظواهر تدل على تفكك المدينة واتجاهها إلى الاضمحلال.

•وفى الواقع أن المدينة الحديثة ترجع إلى مجموعة من العوامل والأسباب من أهمها في العصر الحديث ما يلي-:

1)الثورة الصناعية والتي ساعدت على ظهور المدن الصناعية الحديثة وانهيار العمل اليدوي وحل محله إقامة العمل الآلي واتسع نطاق استخدام الآلات في مختلف الصناعات وأصبحت المراكز الصناعية نواة المدن الصناعية الكبرى.

2)ارتقاء وسائل النقل والمواصلات فقد أدت هذه الوسائل إلى اتساع نطاق المدن، وأدت إلى ازدياد نشاطها العمراني.

3)الهجرة الخارجية التي اشتدت موجاتها في أثناء القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ولاسيما في أمريكا مثل شيكاغو ودوترويت.

4)اتساع نطاق الاستعمار وظهور النزعات الإمبريالية الرأسمالية الضخمة التي ساهمت في خلق طائفة كبيرة من المدن ، فظهور مدينة جاكرتا وسنغافورة في الملايو وهونج كونج إنما يرجعا إلى انتشار الاستعمار الغربي في هذه المناطق.

•وفي هذا السياق يمكن تحديد العوامل التي تفسر نمو المدينة ودرجة التحضر فيها على النحو التالي-:

1)الثورة الزراعية :حيث أن نمو المدينة مرتبط ارتباطاً لا مفر منه بطبيعة الإنتاجية الزراعية وذلك لأنه يلاحظ أنه في حالة أمكان إنتاج فائض من مواد الطعام يصبح من الممكن الاستغناء عن جانب من قوة العمل المستخدمة في إنتاج المواد الغذائية وتوجيهها نحو إنتاج سلع استهلاكية أو رأسمالية والقيام بأنواع من الخدمات التي تغير الحياة في المدينة، ومن هنا يرى علماء الاجتماع أنه كلما ازدادت الإنتاجية في النظام الزراعي كلما ازدادت نسبة السكان الحضريين.

2)الثورة التكنولوجية :حيث يميل علماء الاجتماع إلى الربط بين المدينة الحديثة الصناعية وبين نظام المصنع الحديث ، فالمدينة الحديثة تحتاج إلى وسائل لإعاشة السكان المتزايدين الذين يستطيعون بدورهم أن يقطعوا شوطهم في الحياة دون حاجة إلى العمل في الأراضي طالما سمح الفائض في الإنتاج الزراعي بذلك.

3)الثورة التجارية :حيث أن نمو الأسواق العالمية وطرق التبادل حسنت من وسائل النقل وزادت من حجم التبادل الأمر الذي سمح للمدن بالنمو في ظل ظروف كانت تمنع ظهورها أو نموها في الماضي.

4)الكفاية المتزايدة في وسائل النقل :فإذا كانت المدينة تعتمد اعتماداً ضروريا على التجارة بنوعيها الداخلي والخارجي فإن الزيادة المستمرة في كافة وسائل النقل البعيدة المدى كالسفن والقطارات والسيارات والطائرات كان له أثر بالغ جداً في تطور المدينة نحو النمو المتزايد.

5)الثورة الديموجرافية :حيث أن الثورات التي حدثت في الزراعة والتجارة والصناعة ووسائل النقل تعتبر دليل لوجود الثورة الصناعية ولكن يبقى عامل واحد وهو ما يسمى بالثورة السكانية أو الديموجرافية، وتعتبر هذه نتيجة حتمية للنمو في العوامل السابقة.